

التراث في منظور الاستشراق

د. ميم نسرین لطيفة

جامعة سيدي بلعباس

الملخص:

اهتم المستشرقون بالتراث العربي الإسلامي، فحفظوا مخطوطاتهم ونشروا أجزاء لا بأس بها منها وحققوا بعضها وترجموا بعضها منها، ودرسوا العالم الإسلامي في قرونه الأولى، وأوضحت هذه الجهود شائعة بين الباحثين العرب والمسلمين، وبرزت أعلام من المستشرقين دأبت على التراث العربي الإسلامي تقدمه بدافع الإعجاب والانبهار.

فالمستشرقون هم الذين نبشوا كنوز تراثنا وكشفوا الغطاء عن مخطوطات آدابنا وعلومنا ونشروا أكثر ما تركته ثقافتنا وحضارتنا التي كانت في مرحلة تاريخية ممتدة من مسيرتها الغنية والمتفوقة على غيرها من ثقافات الأمم الأخرى وحضارتها.

كما أن المستشرقين أغنوا التراث بعامة والأدبي منه بخاصة، فخدموه بحثاً مضنياً وتحقيقاً علمياً صارماً، ودرسوا منهجياً وافية، ثم إنهم سعوا ونجحوا في إيجاد موسوعات ومعاجم تضم الناجح من أعمال الأجداد الأفاضل، إضافة إلى تنشئتهم جيلاً واعياً ونشيطاً ومخلصاً من العلماء العرب المدرسين الذين نهجوا نهجهم وطبقوا مناهجهم في الكشف والتحقيق والبحث والدرس، لكن عملهم العظيم هذا لم يمنع من أن ينظر إليه بشيء من الريبة والشك حيناً والاتهام والإدانة حيناً آخر.

الكلمات المفتاحية: المستشرقون، التراث العرب، المخطوطات العربية، العالم الإسلامي.

يظل التراث العربي بفضاءاته المتنوعة، مصدر "اهتمام" جلي لدى المستشرقين على اختلاف رؤاهم، وتباين أحكامهم، كما يظل مصدر "إلهام" للمنصفين منهم، حيث يجدون فيه تجسيدا واضحا للجليلة العربية، المطبوعة بتلك الجمالية العالية على مستوى اللغة الشاعرية، بتفرعاتها ما بين المنشور، والمنظوم بشكل عام... وعلى مستوى الأجناس المنبثقة والموزعة على: السرديات التاريخية، الأساطير العربية، المعالم الأثرية، ثم المخطوطات الغنية بمضامينها، والزخرفة الفنية الكتابة العربية المتميزة العربية المتميزة عن غيرها بالسعة والرحابة والثراء، إنها الوعاء الحافظ لكل مراحل الحياة العربية في أمنها وحرمتها، في ترفها وبؤسها، في وداعتها وشراسرتها، وبالجملة، إنها "خزينة" البنية الذهنية العربية، من هذا المنظور، سيجتهد المستشرقون في خلق إستراتيجية معينة، تكفل لهم الإحاطة بالفعل العربي وتحركاته، وتضمن لهم الاستئثار في الأخذ بالأسباب، ثم المدرسة، بل والتخصص في استنطاق الفكر العربي، ووضعه على المحك.

لابدّ من الاعتراف بأنّ للمستشرقين جهود في التعامل مع المعلومات الإسلامية التراثية والمعاصرة، وإن كان اهتمامهم بالتراث المكتوب أكثر وضوحاً والذي يبدو أن الدوافع والأهداف لهذا الاهتمام الاستشراقي أضحت واضحة لذوي الاهتمام والمتابعة، مع التأكيد على أن الاستشراق يعد اليوم مصدراً فاعلاً من مصادر المعلومات عن الإسلام والمسلمين.

اهتمّ المستشرقون بالتراث الإسلامي، فحفظوا مخطوطاته، ونشروا أجزاء منها لا بأس بها، وحققوا بعضها، وترجموا بعضها منها، ودرسوا العالم الإسلامي في قرونه الأولى، وأوضحت هذه الجهود كلها شائعة بين الباحثين العرب والمسلمين، وبرزت أعلام من المستشرقين دأبت على التراث العربي الإسلامي تقدمه بدافع الإعجاب أحياناً.

وهذا يعد من الدوافع العلمية النزيهة، وبدوافع غير علمية أحياناً أخرى إلى درجة أن المستشرقين المتأخرين "المعاصرين" وجدوا أنّ أسلافهم لم يتركوا مجالاً يذكر في خدمة التراث، لاسيّما مع تسلّم المسلمين والباحثين العرب والمسلمين زمام هذا الاهتمام

بعناية تفوق عناية المستشرقين السابقين بحكم انتمائهم للثقافة التي يخدمونها هذا بالإضافة على مشاركة المسلمين كأستاذة في الجامعات الغربية.¹

فما كان معظم المستشرقين المعاصرين إلاّ الاتجاه إلى الحاضر، بما يمرّ به هذا الحاضر الإسلامي من تغيرات استرعت الانتباه العام، وأضحت مجالا للدرس والتحليل العميق أحيانا، والسطحي المتسرّع في أغلب الأحيان، ذلك الذي تتبناه وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وفضائيات ومواقع إلكترونية، فتأثر الاستشراق بهذا التوجه حتى لجأ المستشرقون إلى الاعتداد بما تكتبه الصحف وجعلوه مادةً للتحليل والتعليق في كتبهم ومقالاتهم عن الإسلام والمسلمين.²

وقب الجادون من المستشرقين على قلتهم في الآونة الأخيرة - مكتباتهم ومراكز بحوثهم، يتشبثون بالعمق في الدراسة من نشر للتراث وتحقيق وترجمة ودراسات جادة، في وقت يستمر فيه سحب البساط من تحتهم، واتجه آخرون كثيرون إلى التحليل السريع لواقع العالم الإسلامي في البرامج الإخبارية التحليلية، فاستهوتهم الشهرة السريعة والظهور الإعلامي المتكرر في الصحف والقنوات الفضائية (!) وبرزت أسماؤهم لدى المنفذين في السياسة والاقتصاد، فاستعانوا بهم في الحصول على المعلومات عن العالم الإسلامي المعاصر، يكلفونهم بدراسة بقعة صغيرة منه، أو ظاهرة غلبت عليه، أو توقع لما يمكن أن يؤول إليه الحال وبنيت على هذه الدراسات قرارات واستراتيجيات، ورسمت عليها الخطط، وحددت بموجبها المواقف.

ولكن هذه الفئة من المستشرقين لم تعد تمثل الاستشراق بالمفهوم العميق لهذا المصطلح، بل إنّ معظم المنشغلين بهذا الأسلوب من تحليل المعلومات عن الإسلام والمسلمين بهذه السرعة قد يدخلون في مفهوم علماء الغرب الذين يكتبون عن الإسلام والمسلمين، مما يعني أنّ هناك مفهوما آخر لمن يخوض في البحث في مجالات المسلمين الحديثة، لا ينطبق عليه مفهوم الاستشراق.

وعلى أي حال فإنّ مفهوم الاستشراق نفسه بدا يخفت وطفق بعض المنشغلين بالشرق يفضّلون أيّ إطلاق المستشرق التفافا على المصطلح، مثل عالم الإسلاميات أو المستعرب أو الخبير في شؤون الشرق الأوسط.³ وكان لهم أثره على المعلومة عن الإسلام والمسلمين، حيث اتّسمت بالسطحية والسرعة حين تستقي معلوماتها من تحقيقات صحفية أو مشاهدات سريعة في مجتمع من المجتمعات المسلمة التي نظر إلى أفرادها على أنّهم متشبّهون للرقية (!) بدائيون وجهلة، لصوص يخطفون الفتيات ويعيشون تحت الخيام يرتدون الجمال، وتسيّرهم غرائزهم الجنسية الدموية.⁴ وهذه الأوصاف لا يقولها المستشرقون المحدثون الذين يدركون أنّها أوصاف سريعة لم يعد لها "سوق" في البحوث والدراسات العميقة.

ومن ذلك الخلط في المعلومات بين ما هو عربي وما هو إسلامي، ونحن نعلم أنّ الإسلام دين وأنّ العربية لغته التي يتحدّثها المسلمون العرب، والمسلمون غير العرب و يتحدّثها العرب غير المسلمين وربما غير المسلمين وغير العرب، وعليه فإنّ المجتمع العربي ليس كلّ مسلمين، ففيه النصارى والعرب واليهود العرب، وما يتصرّفه العرب من غير المسلمين لا يحتسب على الإسلام والمسلمين، لأنّ القاعدة عندها أنّ "الرجال" يعرفون بالإسلام وليس الإسلام يعرف بالرجال، وإنما ولّد هذا الخلط بين الدين والقومية أنّ الاستشراق القديم سمّى المسلمين عربا واستمرّ على هذه التسمية بتوارثها المستشرقون، ثم أخذها عنهم الصحفيون والإعلاميون، حتى أنّ بعضهم ليستغرب أن يوجد بين العرب من هو غير مسلم!

من هنا فإنه من الحيف أن تلصق هذه السطحية المفرطة بالاستشراق الذي عهدناه في تعامله مع تراث العرب والمسلمين رغم ما اعترى هذا التعامل من مأخذ إلا أنّها لم تكن على هذا المستوى من التعامل مع الثقافات الأخرى لأنّ من الحيف أن تحسب بعض المقولات المضلّة عن العرب على الاستشراق من مثل قول احدهم عن العرب إنّهم ليسوا بشرا، إنّهم عرب!⁵

وتتفاوت إلى اليوم نظرة مفكرّي العرب والمسلمين حول قبول الإنتاج الفكري للمستشرقين قبولاً مبدئياً ، فهناك من قال بملء فمه فإنّ كل ما يأتي عن المستشرقين ، مردود دون أن نجهد أنفسنا في التطرفية ، وذلك لأنّ ما جاء به المستشرقون على مرّ الأيام والسنين لم يتعدّ في مضمونه الإهانات المباشرة، وغير المباشرة للتراث العربي الإسلامي، بل لا تكاد تقرأ إسهاماً من هؤلاء إلا وتجده وراءه دافعا إلى وضع نقطة سوداء صغيرة في ذك التراث وعليه فإنّ إنتاجهم مرفوض من مبدئه ، وفي رفضه ما يدعوهم إلى تغيير آرائهم ونظراتهم حول التراث.

وفئة أخرى من المفكرّين العرب والمسلمين تؤمن بما ذهبت إليه الفئة الأولى من العلماء، ولكنها تأخذ هذه المجموعة من الإسهامات العلمية والفكرية، وتعرف خلفيتها ومنطلقاتها، فتدرسها ثم تردّ عليها، وتوضح للآخرين مواقع الخطأ فيها وتبرز لهم مواطن الضعف وأسباب هذا الضعف ودوافعه.

وحجّة هذه الفئة أن كتابات المستشرقين اليوم قد عمّت وصار لها وجود ، ولها رواد ومفكرون ومصنّفون، فهي لم يقف عند إسهامات فردية من مجموعة من علماء الغرب، ولكنها إسهامات جماعية وفردية في آن واحد، تدعمها مؤسسات علمية كبرى، كالجوامع والهيئات العلمية الكبرى والهيئات البحثية الخيرية، بل تدعمها حكومات تقف وراءها، لأنها دراسات تحقق للحكومات فوائد كثيرة في سبيل قربها من هذه الثقافة المدروسة أو بعدها عنها، وبالتالي فإنّ هذه الحكومات تستفيد من دراسات هؤلاء المستشرقين في رسم استراتيجيات وخطط للتعامل مع أصحاب هذا التراث سواء على مستوى الحكومات أم على مستوى المفكرّين وأفراد من مختلف الاهتمامات.

وتردّ هذه الفئة من العلماء والمفكرّين على من يستبعد هذا الاهتمام المباشر من قبل الحكومات في دعم هذه الدراسات واستفادتها منها ، بما تغدقه على معاهد الاستشراق من مساعدات مالية مستمرة، ومن مساعدات معنوية تتمثّل في تقريب المستشرقين والتنويه بمجهوداتهم وإسهاماتهم العلمية ، ومن ثمّ رصد الجوائز التقديرية لهم- على ما مرّ ذكره - وتزيد هذه المساعدات وتنقص حسب أهمية الأمم التي بمعناها الشامل الذي يتضمن دراسة مكل الثقافات الشرقية، بما فيها الهندية والفارسية والصينية واليابانية ، وغيرها من الثقافات التي تقع في مفهوم " الشرق " عند هؤلاء الدارسين.

ويلاحظ أنّ حجم المساعدات في زيادته ونقصانه يتوقّف على " الالتفات " حكومة ما إلى أهمية ثقافة ما في مستقبل العلاقات بين هذه الحكومات وهذه الثقافات، ولا يتعارض هذا إطلاقاً مع المساعدات الأخرى التي تقدّمها هذه الحكومات على معاهد ومؤسسات علمية التي تركز في دراساتها على الحال الراهنة للمناطق المختلفة، بل تتعاوض هذه مع تلك، لتعطي صورة واضحة للحكومات المعنية ، تنطلق من خلالها في تحركاتها وعلاقاتها ومصالحها.

ورأي هذا منطلقه في إقحام السياسة في دراسة التراث يتوقّع منه أن يتقبّل هذه الدراسات على أنها دراسات صادقة وموضوعية، بحيث تقدّم صورة واضحة عن الخلفية التي تدين بها الأمم الأخرى ، مما يدعو إلى عدم إتباع أساليب الشك والتكذيب في هذه الثقافات. وهي إن وقعت فإنما هي واقعة من دافع ذاتي للدارس أخطأ فيه في فهم نصّ أو حادثة أو ظروف تمرّ بالحال التي يدرسها ، فأصدر حكمه الخاطئ بناء على فهم خاطئ ، وقد تعلمنا انه إذا كانت المقدمات خاطئة جاءت النتائج خاطئة كذلك، أما تعمّد الخطأ، فغير وارد هنا لئلا يتبع ذلك خطأ في رسم التحركات والعلاقات والمصالح والاستراتيجيات وغيرها من المنطلقات السياسية.

واقع الأمر أن هذا اعتراض وارد حقاً ، ويردّ عليه محاولة فهم أنّ هذه الحكومات لا تقدّم هذه المساعدات إلا من أجل المعني في الطريق الذي نهجه المستشرقون من أكثر من قرن من الزمان، حينما بدؤوا في دراسة التراث لاسيّما منه التراث العربي الإسلامي، إذ أنّ ما يقوم به هؤلاء الدارسون يشكّل حلقة في سلسلة حلقات تكوّن من مجموعها محاولة إخضاع أهل هذه

الثقافة وهذا التراث إلى أسلوب التفكير الغربي في النظر على الوقائع والأحداث، فإذا تمّ ذلك أصبح من السهل جدًا احتلال أهل هذا التراث احتلالًا فكريًا علميًا بعد أن مضى عهد الاحتلال الحضوري المباشر والمؤقت في أن واحد، وتكون الحكومات في هذا قد حققت غرضين مباشرين من الدراسات الاستشرافية: الأول ما يتعلق برسم الاستراتيجيات، والثاني ما يتعلق بالاحتلال والهيمنة الفكرية على المدى الطويل.

هذا الاهتمام المباشر بالتراث من قبل الأفراد والهيئات والحكومات خلف وراءه فئة ثالثة من أولئك الذين ينظرون إلى أعمال المستشرقين ويكثرون حيالها مواقف واضحة، تلك الفئة الثالثة الأخرى هي التي رحبت بالإنتاج الاستشراقي، ونظرت إليه على أنها نصر جديد لهذا التراث، حيث رزق من يدرسه دراسة متأنية، ويبرز فيه بعض المآخذ التي تردّ إلى الأشخاص، ولا يمكن أن تكون حجة على التراث.

ويفتن هؤلاء عندما يعلمون مثلاً أنّ المعلّقات قد ترجمت إلى أكثر من لغة، وأنّ الحديث النبوي الشريف قد فهرسته مجموعة من المستشرقين وإنّ معاني القرآن الكريم قد ترجمت إلى أكثر من مئة وإحدى وعشرين لغة، منها ثماني لغات أوروبية وأمريكية حظيت بخمس وسبعين ترجمة، وأنّ مؤلفات جابر بن حيّان وابن سينا وابن رشد والبيروني وابن الهيثم والكندي والغزالي وغيرهم كثير من الأدباء والعلماء والشعراء والأطباء قد فسحت لهم المكتبات في رفوفها، كل هذه الجهود تفرض الاحترام، و بالتالي تفرض القبول للدراسات التي قام بها هؤلاء.

أما عن أخطائهم الواضحة فإنّ هناك من يعدّها ويعترف بها، ولكنه يراها أخطاء بشرية، مثل تلك التي يقع فيها أيّ بشر على أيّ صعيد كان، وعندما تقف مع هؤلاء وقفة قصيرة تذكّركم بها بأخطاء شاخت وجولد تسيهر وبرغليوث وبارك وبلاشير وليفني وجرسون وغرونيا ورودوزي وكراتشوكوفسكي، ونولدكة وغيرهم يحاولون أن يقنعوك بأنّها مجموعة أخطاء شخصية جمعت كلها في محاولة لبخس هؤلاء حقّهم!

وَعَيْنُ الرِّضَا مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا

ولكثير من المستشرقين طبيعة فريدة في البحث في العلوم والمعارف الإسلامية، فالقاسم المشترك بين هؤلاء جميعهم أنهم لم يكتبوا للإسلام حبا في الإسلام وعلومه، وإنما كانت كتاباتهم تنوّجّ الإساءة إلى هذه العلوم وأهلها، والدين الذي شجع عليها، بعد أن شعروا أن هذه العلوم قد غزت أوروبا متسرية من مكتبات المسلمين وفكرهم وثقافتهم وعلمهم.

فهم بذلك لا يصطنعون الموضوعية وإن ظهرت في آثار القلّة منهم جوانب فيها موضوعية ومعرفة بالحقّ واعتراف لأهله به، إلا أنّ هذه النوعية من المنصفين مع وجودها لا يمكن أن تكون هي الجانب الغالب على هذه الفئة من الباحثين، ومن أنصف منهم الثقافة الإسلامية وعلومها لم يعطه أقرانه الاهتمام الذي يعطيه من اوجد " نظرية" جديدة في علم من علوم الثقافة الإسلامية.⁶

والمستشرقون أصحاب إنتاج فكري كبير، فإذا كنا نقف منه موقف الحذرين فإننا لا بدّ أن نسجّل الإعجاب بسهرهم الدائب، وبحبهم المستفيض، وتعلّمهم المستمر في سبيل أن يحدثوا خدشا أو خدوشا في صرح ثقافة إسلامية جاءت خدمة للأمة جمعاء، هذا الإعجاب بالمجهود الذاتي الذي قاموا ويقدمون به لا يسجّل هنا على أنه مسوغ لقبول ما جاؤوا به من نظريات جديدة حول تدوين الحديث الشريف والتراث الإسلامي — مثلا- ولكنه الإعجاب بالأسلوب والطريقة الذين اتبعوها في سبيل الوصول إلى ما وصلوا إليه، موقنين هنا أنهم إنما يخدمون بذلك ثقافتهم وسياسات دولهم من دون مبالغة، إذ أنهم لم يتركوا جانبا من جوانب التراث الإسلامي لم يكن لهم عليه ملحوظة، ولم يسلم منهم عالم من علماء الإسلام والمسلمين لم

يقدهوا في علميته، بدء بالبخاري ومسلم وأصحاب الصحاح والسنن، و مروا بعلماء الطبيعة والطب والاجتماع والآداب اللغة والجغرافيا والتاريخ.

فبعضهم لا يقولون لك عن الحديث مباشرة كلاما سلبا، ولكنهم يعمدون إلى رجاله، الذين عدّهم المسلمون ثقات، واخذوا عنهم حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيشككون في علميتهم، وطرق جمعهم للمادة العلمية التي كانت أصلا لإنتاجهم العلمي الذي حفظوا فيه أحاديث الرسول- عليه الصلاة والسلام- بعد أن اتّبّعوا في ذلك أساليب التوثيق في علم الرجال أو الإسناد، التي لم تتوافر لأيّ ثقافة أخرى.

وهم يعمدون إلى ذلك محكمين جوانب مادية بحتة، ربما وازنوها بالجوانب المادية التي كانت متوافرة لديهم في الوقت الذي يكتبون فيه عن هؤلاء العلماء الأفاضل، فيبدؤون بالتشكيك بأسلوب البحث الصحفي عن رواة الحديث والسفر إليهم، محتجين بأنّ ذلك من الصعوبة بمكان في وقت لم تكن فيه وسائل المواصلات متوافرة آنذاك، وهم بهذا يقيسون مقدرة أولئك العلماء على البحث والتوثيق على مقدرتهم هم فيما لو اوجدوا في عصر أولئك العلماء مما يسمى بالإسقاط.⁷

هم بهذا أيضا يغفلون الجانب الروحي الذي كان الحافظ الوحيد والرئيس على أقل تقدير لتدوين العلم، فمثل هؤلاء العلماء إنما ورثوا العلم عن نبي الله-(صلى الله عليه وسلم)- وهم بذلك يرجون ثواب الله ويخافون عقابه. هذا الجانب الروحي مغفل في كثير من تحليلات المستشرقين لإسهامات المسلمين في نهضة الأمم، وذلك لأنهم فاقدون لهذا الجانب، حينما شعروا أنّ خلفيتهم الدينية تمنعهم أصلا من التوسع في العلوم وطرق أبوابها، فما كان منهم إلا أن فصلوا بين العلم والدين، كما فصل سياسيوهم بين الدين والدولة.

وإذا كان بعض منهم يدرك أنّ الإسلام يحثّ على العلم ، فإنه لا يلمس ذلك بحكم خلفيته الدينية، فهو لا يخاف عقابا ولا يرجو ثوابا من ذلك كله، وذلك للفصل عنده بين جانب الثواب والعقاب وجانب البحث العلمي. وعليه فإنّ إدراكهم لحثّ الإسلام على العلم والبحث عن الحكمة إنما يظل ثقافة مدركة لم تترجم عندهم إلى الواقع كما ترجمها علماء المسلمين في إسهاماتهم التي خدمت الإسلام بخاصة وانعكست على البشرية بعامة وتبعها أو سبقها التطبيق على الواقع اليومي في حياة المسلمين.

إذا كنا نكتب عنهم ذلك لأننا ندرك تماما أنّ ما كتب عنهم من قبل أكثر من ذلك بكثير مادة وفائدة، ولكننا هنا بالكتابة عنهم بغير لغاتهم تفيد من جانب واحد ، وهو التحذير من أغراضهم وغاياتهم، لئلا يقع فيها مثقفو العرب والمسلمين ، وكانت لهذا الجانب جدواه وكان له تأثيره ولعلّ الأجدد من ذلك كله أن يدرس هؤلاء من جوانب كثيرة، تبدأ بدراسة لغاتهم وطرق تفكيرهم وأسلوب بحثهم ، بحيث يتمكّن المرء الدارس لهذا كله أن يكتب عنهم، ردّا عليهم بأسلوب تفكيرهم ، متبعا بذلك الموضوعية التامة التي لم يتبعوها، إذ أنه سيجد نفسه أمام حقائق، وهم يرون أنفسهم أمام نظريات، ويكتب لهم عنهم بلغاتهم، وينشر عنهم بصحفتهم ومجلاتهم ودورياتهم، مثيرا قضايا أثاروها، مستشهدا بأعمال كتبوها رادّا على نظريات وضعوها وصاغوها وملاحقا إنتاجهم متبعا له قارئاً إياه قراءة الناقد الذي يتوقع حسنة فيذكرها ويؤكد عليها، ويتوقع زلة فلا بد أن يجدها معطيا إياهم جوانب الإنصاف التي تبدو على كتاباتهم، معترفا بما لهم، لئلا يتهمونه بأنه متحامل عليهم، فيفسد على نفسه فرصة التأثير فيهم، ولعلّ هذا من متطلّبات الدعوة إلى قيام مفهوم الاستغراب بصورته العلمية الواضحة.⁸

هذا الأسلوب العلميّ بحدّ ذاته، وهو في الوقت نفسه يكسب المرء ثقة من قبل قارئه، ولم يكونوا من أولئك المستشرقين الذين يهتمون بالثقافات الأخرى غير ثقافتهم مثل الثقافة الإسلامية.

هذا الأسلوب موضوعية تفرض على الآخرين احترام وجهة نظر كتابها وإن كانوا في قرارة أنفسهم لا يجذبون ذلك، ولكن من يتبع هذا الأسلوب إنما يعمد إلى وضع هؤلاء أمام الأمر الواقع، حينما يعدّ نفسه في أسلوب تفكيره وبحته وكتاباته وكأنه واحد منهم.

إذا كان من يقوم بمثل هذا متقنا للغة العربية اتقانا أو قريبا من التامّ أمكنه أن يعود إلى الموضوعات التي كتبوا عنها ، فيقرأها قراءة غير التي قرؤوها ، ليجد أنهم إنما يفهموه على ما فهموه عليه فيعدل في فهمهم من النصوص التي استشهدوا بها، وهذا جانب كثيرا ما وقع فيه بعض المستشرقين الذين لم يتقنوا العربية بنحوها وصرفها وبيانها وبديعها ففهموا نصوصا فهما غير مقصود، بنو على هذا الفهم قضاياهم ونظرياتهم، ويؤكد على ذلك ويؤكد كذلك رجوع بعض من المستشرقين إلى بعض النصوص العربية التي كتبت قبل ظهور فكرة " التنقيط " للحروف ، فكان أن ساعد ذلك على أن ينشّطوا في الفهم.

هذا الأسلوب في الردّ على المستشرقين والحوار معهم يتطلب تضافرا لجهود الهيئات والمؤسسات العلمية الإسلامية، بحيث تقيم " جبهة " علمية تكون مهمتها جمع ما كتبه المستشرقون عن الإسلام والمسلمين، ومن ثمّ تكلف من يقومون بقراءة ذلك والبحث فيه والردّ عليه بلغة كاتبه أو كتابه، ولو دعا الأمر إلى كتابة الكتب بدلا من المقالات ، إذ أنّ بعض الموضوعات عند الكتابة عنها تحتاج إلى أكثر من مقالة، في سبيل إقناع المعنيين بالأمر ببطلانها وعدم علميتها أو موضوعيتها.

هذا بالإضافة إلى العناية بالمؤتمرات والندوات وتكريم المنصفين من المستشرقين ودعمهم ماديا ومعنويا، فتوجد هذه المؤسسات العلمية الإسلامية مركزا للمعلومات تهيأ له الظروف والسبل التي تكفل له أن يقوم بهذا العمل بشكل فعال، مما يتطلب وجود العالمين بالثقافة الإسلامية واللغات الأخرى.

حيث يجمعون بين هذا وذلك، وهذه النوعية من الباحثين قد لا تكون نادرة ولكنها ربما تحتاج إلى البحث عنها ودعوتها وإعطائها ما تحتاج إليه وتستحقّه من العناية والتكريم، بحيث يتحوّل مركز المعلومات هذا إلى مركز للبحث والتنقيب والدراسات العلمية الخالصة.

إذا كانت نواة مثل هذا المركز المقترح موجودة هنا أو هناك، فالأحرى بالمؤسسات العلمية الإسلامية مدعومة من قبل حكوماتها والمتهمين من أبنائها الموسرين أن تعطي مثل هذه النواة العناية التامة ، بحيث تعنيها على أن تقف على قدميها شجرة وارفة مباركة تؤتي أكلها كل حين بلا إذن ربها.

هذا في نظر الباحث هو الأسلوب الأمثل لمن يريد أن يؤثر في اتجاهات المستشرقين ويخفف من حدة تهجمهم " العلمي والفكري " والإعلامي على الإسلام وعلماء الإسلام، فهم لا يزالون يقومون بذلك ويكتبون عن ذلك كثيرا، وليس هناك أخطر على الثقافة الإسلامية من أن تطعن من وراء ظهرها ، فتقدم للآخرين بأسلوب يعين على أن يرى هذه الثقافة من زاوية سلبية بحتة تقلل من أهميتها وأهميتها تأثيرها في العالم.

والنتيجة أن الاستشراق كما يؤكد محمود حمدي زقزوق في كتابه " الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري : " كان ولا يزال جزءا لا يتجزأ من قضية الصراع الحضاري بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، بل يمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك ونقول: إن الاستشراق يمثل الخلفية الفكرية لهذا الصراع ولهذا فلا يجوز التقليل من شأنه بالنظر إليه على أنه قضية منفصلة عن باقي دوائر الصراع الحضاري، فقد كان الاستشراق من غير شك أكبر الأثر في صياغة التصوّرات الأوروبية عن الإسلام ، وفي تشكيل مواقف الغرب إزاء الإسلام على مدى قرون عديدة وإن الاستشراق مكانته وتأثيره في تسيير سياسات غربية اتجاه الإسلام، كما أنه مؤثر في النظر الإسلامي الحديث، كما يقول محمود حمدي زقزوق أيضا: والواقع الذي لا يمكن إنكاره، هو

أن الاستشراق له تأثيراته القوية في الفكر الإسلامي الحديث إيجاباً أو سلباً أردنا أم لم نرد ، ولهذا فإننا لا نستطيع أن نتجاهله أو نكتفي بمجرد رفضه ، وكأننا بذلك قد قمنا بحل المشكلة.

ذلك هو الموقف الذي لابدّ تبنيه في مواجهة هذا الجزء من قضية الصراع الحضاري، ولهذا الموقف مقوماته ودائمة ووسائله يقوم بها أفراد ينتظر أن تقوم بها مؤسسات ودول وأمم، فكان الله في عون أولئك الذين نذروا أنفسهم للتصدي للظاهرة الاستشراقية بعلمية وموضوعية وتجرد.

الهوامش

¹ - ينظر: مارسيل بوازار ، الإسلام اليوم - بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 1989م ، ص20.

² - John Eposito, the Islamic Threat : Myth or reality, New York : Oxford university press, p168-215.

³ - ينظر: علي بن إبراهيم النملة، الالتفاف على الاستشراق، محاولة التنصّل من المصطلح، الرياض، مكتبة عبد العزيز العامة، 1428هـ/2007م، ص 183.

⁴ - ينظر: محمد إبراهيم الفيومي، الاستشراق رسالة الاستعمار، تطوير الصراع الغربي مع الإسلام، القاهرة: دار الفكر العربي، 1993م، ص299.

⁵ - ينظر: أحمد بهاء الدين شعبان، حاخامات وجنرالات: الدين والدولة في إسرائيل (القاهرة)، نَوّارة الترجمة والنشر ، 1996م، ص 47.

⁶ - ينظر: علي إبراهيم نملة، الاستشراق: مواقف ومواقف - مجلّة العرس الوطني ، مج ع 44 (شوال 1406هـ-1986م)، ص 45-44.

⁷ - ينظر: شوقي أبو خليل، الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشّرين، دمشق: دار الفكر، 1419هـ/1998م، ص 240.

⁸ - ينظر: حنفي حسن: مقدّمة في علم الاستغراب.